على هامش معالم التقريب *

عقل الآدمى

فى رائعته : " معالم التقريب بين المذاهب الإسلامية "، تحدث أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد، عن عقل الآدمى، وكيف لا يكف عن معاناة ثلاثة أمور : أولها : أمور يحد العقل ويرى أنها تناقضه وتنازعه وتعاديه، فيحكم عليها بالبطلان والفساد، ويقاومها ويحاول القضاء عليها ما استطاع . وثانيها: أمور يرى العقل أنه لم يدركها ولم يسيطر عليها بعد، رغم أنها فى نظره قابلة للفهم، ويجد أنه مشوق إلى تجربة قدراته فيها وموالاة المحاولة، وثالثها : أمور يفطن العقل إلى وجودها، ويفطن أيضا إلى أنها وراء قدراته، وغير قابلة فى نظره للإحصاء، وأنه برغم ذلك مرتبط بها بروابط أساسية يشعر بوجودها ولا يملك التعبير عنها أو عن وجودها، فيفطن إلى أن سبيله مع مثل هذه الأمور ليس الغلبة أو الخدعة أو المهارة فى الاستدلال والقياس والاستنتاج، لأنه يحس بأن هذه الأمور أوسع صلة وأكثف أستارا من قدرته التحليلية الاستنباطية، ومن ثم فلا سبيل أمامه معها سوى التحبب والتقرب والمسايرة مع التخلى عن الأنانية والخداع والرغبة فى تميز الذات، أو بعبارة أخرى التخلى عما ينطوى تحت كلمتى " الإخلاص والولاء " .

وقد يؤدى ترقى العقل إلى تحرك هذه الأنواع الثلاثة من الأمور - بين الدوائر التى قدمناها، وتتغاير أحوال الاقتناع بما هو صحيح

---

* المال ٢٦ ، ٢٧ /١٠/ ٢٠١٠

أو باطل، وقد تخرج أمور من دائرة ما وراء القدرات لتنتقل إلى المتاح .. وهكذا ..

ودائما يسلم العقل بأن مسائل الدين تقع معظم ركائزها فى الدائرة المستورة عن البصيرة أو عن الحكمة والإلهام والذوق، ويبرز منها ما نسميه بالمواهب والعبقريات والنعم والمواجيد والكرامات والنفحات .

والذين يرفضون الدين باسم العقل، ينسون هذا النوع الثالث من الأمور التى لا يكف العقل عن معاناتها، وينسون أن العقل هو الذى يفطن إلى وجود هذا النوع .. وأمثال هؤلاء يحاولون حصر مسعى العقل فى النوعين الأول والثانى دون النوع الثالث . ولعل المتأمل يلاحظ أن هؤلاء، من حيث لا يشعرون، يستبعدون كل ما يمكن للعقل السيطرة عليه وإحرازه - من دائرة الواقع والوجود . وهم فى ذلك لا يستبعدون مسائل الدين فقط، بل كل الركائز المستورة للبصيرة والحكمة والإلهام والذوق، وكذا كل العبقريات والمواهب .. لأنها كلها آحاد فذة فى النوع الإنسانى .. مجهولة المصدر، عيبية الأساس بالنسبة لسيطرة العقل الذى لا يحرز إلا ما هو قابل للتكرار والإعادة .

ومسلك هؤلاء، لا يجعل حياتهم أو حياتنا أكثر وضوحاً، لأنه لا يقلل الأسرار التى لاحصر لها وتكتنف الحياة والكون ومصير الإنسان ومستقبله .. من وجد ومن لم يوجد بعد وسيوجد فى المستقبل . وأمثال هؤلاء الذين يرفضون أن يستعملوا من قوى العقل وملكاته - ما سوى الذهن، يقتضيهم مسلكهم هذا أن يعيشوا - وربما دون أن يتنبهوا - حياة فكرية وروحية منكمشة متقلصة فى حدود معارفنا المحسوسة، أو المعتقد أنها محسوسة .وهى معارف ضئيلة وقاصرة جداً بالنسبة إلى سعة الحياة والكون !

ولو تأمل هؤلاء لعرفوا أن وراء مسلكهم نقصا واضحا فى إيمان العقل بقيمته، مع أنهم يقدمونه أو يعتقدون أنهم يقدمونه .. والعقل حين يفقد إيمانه بقيمته يفقد وقاره، ويفقد مع ذلك فضيلتى الإخلاص والصبر . والعقل يفقد إيمانه ووقاره حين يستمرئ النوم والكسل والهروب من المجهود، فتطول غفلته حتى تغرقه فى الهزائم، فإذا صحا - لفترة - هاله أن ما صار حوله هو محض أتربة وخرائب وأنقاض، فيداخله اليأس، وتفارقه الجرأة والشجاعة .

ويبدو أننا نعيش، ومن أحقاب طويلة، بهذا العقل اليائس الضيق الكاره، وأنه يسير بانهزامه هذا نحو الصغار والاستصغار والهوان والاستهانة، فأمسى الإخلاص والصبر مشكلة من المشكلات المعقدة فى حياتنا الفكرية والروحية .. حتى صار العقل فى ضوئه الشاحب ينظر إلى الصبر والإخلاص نظرة لا تخلو من السخرية !!، ويرى الإخلاص والصبر من صفات النفس والخلق لا من صفات العقل ولوازمه وتوابعه الضرورية .. بل وصار البعض يتصور إمكان وجود الإخلاص والصبر حيث لا يوجد العقل، أو حيث لا يوجد العقل إلا بصورة صعيفة ناقصة قاصرة . وكثيرا ما يقود هذا التصور الخاطئ إلى اعتياد التحلل من الإخلاص والصبر، وهكذا انقسم العقل على نفسه، وانفصل خلق معظم الناس عن عقولهم، وأمست أرواحهم غير متصلة لا بعقولهم ولا بأخلاقهم، وصارت السخرية لعة للعقل المنفصل فى ابتعاده عن الخلق وعن الروح .

* * *

ويبدو أن أخطر أنواع الازدراء والسخرية أثرا على أرواحنا وسلوكنا - هو فيما يبدى أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد - ما نمارسه منهما فى الخفاء فيما بيننا وبين أنفسنا، وما نتظاهر بإخفائه

وكتمانه وحجبه عن الناس، وراء أستار من التكلف والتصنع ليس لها آخر ..

ولكن هل نستطيع، أو هل من حقنا، أن نزدري في الخفاء، وفيما بيننا وبين أنفسنا ـ عباد الله ؟! إن من يدعي لنفسه هذا الحق لن يعرف لقائمة من يزدريهم حدا، ومن المحال أن يعطينا الدين هذا الحق .. فهو لو أعطانا إياه ـ أعني الدين ـ لهدم نفسه وقدم معاول هدمه داتيا .. ذلك أن ازدراء الناس سرا هو الخطوة الأولى التي تقود حتما إلى كل كبر وتعصب، وإلى كل رياء ونفاق وغش، وإلى كل لدد في الخصومة وكل دسيسة وخيانة ..

هذا الازدراء لخلق الله ـ هو الخطوة التي تستتبع كل جبروت وظلم وبغي وطغيان، وكل افتئات ونكران وبهتان ولا مبالاة . وذلك يبعدنا بالحتم ـ دون أن نشعر ـ عن الولاء لله عز وجل، وهذا الابتعاد هو بداية طريق محوف ينحدر سالكه كل لحظة إلى المزيد من الابتعاد عن الله، وإلى المزيد من الاقتراب من الهاوية !

من المحال أن يوجد الولاء لله عز وجل بمعزل عن الإخلاص والصبر، وذلك مستحيل بدون الاعتراف الكامل الصادق المخلص بعباده، أي الاعتراف بوجودهم وجوداً حقيقياً فعلياً مماثلا لوجودنا تماما؛ وليس محض تفضل أو مِنَّة لا نقر فيها إلا بوجود شكلي مبهم لا يقتضينا عملا يترجم عنه، وإنما إقرار صادق غير قابل للمن ولا للمحو أو الحذف والتغيير .

الإقرار الصادق بوجود عباد الله، لا يستقيم بل يستحيل معه ـ أن نستخف بهم أو نتعالى عليهم أو نحازف بمصائرهم طمعا أو عنادا أو طيشا .. يستحيل مع هذا الإقرار الصادق أن نقدم أو نصبر أو نسكت على ظلمهم أو إرهاقهم وإعناتهم وشقائهم . فذلك

وقعنا ـ مهما واريناه ! ـ فى تناقض يكذب إخلاصنا وصدق ولائنا
ه عز وجل .

ليس من الولاء لله عز وجل أن نستخف ناهيك بأن نزدرى
بياده، وأن نعطى أنفسنا الحق ـ من واقع هذا الاستعلاء
والاستخفاف ـ فى أن نتحكم فى مصائرهم وأن نحركهم على
هوانا وأن ننقلهم كيف نشاء ـ من حال إلى حال، ومن جانب إلى
جانب كما ننقل البهائم أو الدمى أو الحجارة أو القمامة .

قد نستطيع بالتجمل والمصانعة أن نستخفى بما نفعل، ولكن
هذا الاستخفاء لا يوجد ولا يستقيم معه الولاء لله عز وجل، ولا
يمكن معه أن نكون أوفياء العهد لله أو قريبين منه جل شأنه .
فكيف يكون هذا القرب ونحن نمسخ عباد الله ونحولهم ـ فى نظرنا
ـ إلى مخلوقات كئيبة نصب عليها المزيد من ازدرائنا لها !

هذا المسخ هو نسف وتدمير لباطن الآدمى، ينسفه فى نظر
نفسه، ذلك أن أثره غائر بعيد الغور من طول التعرض لتأثير الهوان
والإذلال والخوف والقسوة، أو لتأثير الإفساد والغش والكذب
والزيف والتضليل والجهالة والإهمال والقذارة المادية والمعنوية . من
يجبر على ذلك ويألفه يسكن إليه بحكم الاعتياد وينكمش فى
داخله وإزاء ما يواجهه، ويصير هذا الشر الذى أصابه ـ يصير بالنسبة
له جزءا من نظام الحياة، ينتهى أمره معه ـ شعر أم لم يشعر ـ إلى
التشبث به بعناد وغباء، ويصعب عليه من ثم أن يفارقه !!

فهل هذه التعاسة ذات نفع أو جدوى لدى من دفعهم الاستعلاء
والتكبر إلى ازدراء عباد الله والاستخفاف بهم ؟! لو تأملوا لأدركوا أن
الناس حين تمسخ وتتحول فى نظر نفسها إلى قردة وخنازير أو ما
يشبه القردة والخنازير، أو الحجارة والقمامة، فإنه من المحال أن يبقى

فى داخلهم مكان أى مكان، لولاء حقيقى لأحد، ولا إخلاص حقيقى لشىء، حتى لهؤلاء الذين طغوا بالتكبر والاستعلاء أنهم امتلكوا مقاديرهم !!!

ونحن حين نطوى جوانحنا على ازدراء الخلق، نطويها - فيما يبدى محمد عبد الله محمد - على يأس عميق غائر من مستقبل البشر، وعلى قنوط هائل من إمكان إقامة شىء باق ذى معنى بقاءً حقيقيا حيا يستمر فى حياتنا ومن بعدنا رغم موتنا، ويزداد مع تعاقب الأجيال نماءً واكتمالاً ورسوخا .

من التناقض البين أن نزدرى الناس إذا اعتقدنا أن لهم ويجب أن يكون لهم مستقبل أفضل من حاضرهم ! فنحن حين نزدريهم نجردهم فى أعيننا من القيمة ومن كل مستقبل وكل أمل فى الارتقاء، ونصادو ونحكم عليهم وعلى نوعهم بسوء المصير . ومن المؤسف أن هذا الضرب من الازدراء لخلق الله قد تغلغل وساد فى عصرنا لدى كل تنظيم يستهدف تحريك الناس واستخدامهم فى القضايا العامة !

إنا لا نزدرى الآخرين إلاّ بسبب مبالغتنا فى قيمة أنفسنا، ونتيجة إصرارنا على أن نكون نحن أداة القياس التى تقاس بها قيمة الآخرين، ولأننا نحصر فى أنفسنا دائرة الدين ولا نسلم بوجود محكمة أعلى منا ومن أنفسنا إليها مقاليد وأحكام الناس !

لو تأملنا لوجدنا أن دائرة من يتلقون الازدراء تزداد ودائما فى ازدياد، وأن دائرة الجائزين للاحترام فى تناقص، ومن هنا جاء التباين أو التفاوت الشديد فى أحكامنا مع غلبة السطحية والتأثر الشديد بالأهواء والمصالح، وقابليتها لإشعال نيران الانفعال والتعصب، وشيوع التوجس وإساءة الظن وعدم الثقة والتفتت . لا

يذكر محمد عبد الله محمد هذا كله فى حديثه عن معالم التقريب إعلانا لليأس من استجابة البشر، وإنما ليقول لنا : إنه على قدر ما يكون الناس من الغباء والغفلة والشر، تكون حاجتهم إلى العلاج والمعونة، وأن الشر والغباء هما الذراعان اللتان ترفعهما البشرية - على غير وعى منها - نحو السماء .. تعلن بهما فشلها فى معالجة نفسها بنفسها وتستعجل بهما استجابة وتدخل ونجدة الله عز وجل!